أهل الظلمة وأهل النور

للأستاذ محمود شلبي

كلما قلبت تفكيرى فى أمر هذه الحياة ، ازددت يقيناً أن الأمر أعمق من تلك السخافات ، التى يحشو الناس بها عقولهم .

نعم ... هناك وراء المظاهر جواهر ، ووراء الأفعال أسباب ، ووراء الأسباب أسرار ، ووراء الأسرار سر واحد ...

ذلك السر هو القدر ! .

ولست أعنى بالقدر ما يشغل الناس به نفوسهم ... تلك المسألة الملة التى تتلخص فى ذلك السؤال البارد : هل الإنسان مسير أم مخير ؟ .

كلا ... لست أعنى بالقدر ، ذلك السؤال ، وإنما أعنى بالقدر سر هذه الحياة المكنون عند خالق الحياة ، والذى لم يطلع عليه أحد .

سر هذه الحياة المكنون ... ما هو ؟ ما وراءه ؟ .

ولست أجهل أن هناك قوما سوف يقولون ، وما شأنك أنت بسر الحياة المكنون ؟ .

وهؤلاء أقول لهم : ليس لأحد أن يبحث سر الحياة ، لأن الله وحده هو الذى يعلم السر وأخفى .

وإنما الذى أحب أن أتكلم فيه هو شىء لاحظته فى الحياة نفسها .

ذلك الشىء هو القدر المحلق بجناحيه فوق رأس كل إنسان .

وأعنى به قوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » .

نعم ... ما من نفس تتقلب فى هذه الحياة إلا وهى إرادة سابقة قبل أن تكون .

كل إنسان ألزمه حظه المكتوب عليه فى عنقه !! .

هل هذه حقيقة ؟.

نعم ... بل هى أم الحقائق .

وهى مفتاح أسرار الحياة ، والشىء الذى يكشف عن خباياها كلها .

تنظر إلى الرجل فتجده يتحرك فى الحياة تحرك الحيوان فى الغاب .

فتسأل نفسك : ألا يعقل هذا الرجل ما يصنع ؟ .

والحقيقة أنه يعقل جيداً ما يصنع ، ولكنه لا يستطيع أن يصنع إلا ما يصنع !.

وآخرين يتخصصون فى اقتراف الآثام والجرائم ، والناس تسأل : ما بال هؤلاء لا يقلعون عن آثامهم ؟ .

والحقيقة أن هؤلاء لا يستطيعون ! .

ماذا أحب أن أقول ؟ .

أحب أن أقول : هو القدر ...

القدر الذى يسرى فى الناس من أولهم إلى آخرهم ، فيدفع هذا إلى الشر ويدفع ذلك إلى الخير .

والناس حيارى سكارى ، فيما يرون على مسرح هذه الحياة ! ! .

ولقد كان من رحمة الله العظمى بالناس أن غيب عنهم مقاديرهم ، ومقادير كل شىء .

فاستقامت الحياة على أمر الله ، كما أراد الله ، والخلائق لا تدرى من الأمر شيئاً !!

ذلك هو القدر ... وإنها لحقيقة الحقائق .

فمن المقادير التى غيبها الله عن الإنسان ، الزمان والمكان والكيفية التى سيموت عليها .

وتجرى العملية بأيدى ملائكة كتب عليهم أن يقوموا بها ولا يستطيعون منها فكاكا .

ويأتى ملائكة الموت إلى الناس ، ويقبضون أرواحهم ، ويفعلون بها ما أمرهم الله أن يفعلوا .

كل ذلك يجرى بأيدى خلائق موجودة فعلا ، ولـكن الإنسان الذى هو موضع العملية ، لا يرى من ذلك شيئاً ! ! .

وتلك هى الرحمة فى إجراء المقادير ! .

وهذ الأمر جدير بالتفـكير العميق .

هذا أنا أتقلب مخلوقا حياً ، حتى إذا كانت ساعتى المحتومة ، جاءنى ملائـكة الموت ، ونزعوا روحى من جسدى .

إلا أننى لا أرى ... وتلك من رحمة الله ! .

وإليك ما هو أوضح من هذا ، وما هو أعجب .

أنظر إلى الأنعام تساق إلى المذبح لتذبح وهى مسرورة فرحة ! ! .

وتجرى عملية الذبح ، وتخترط أعناقها ، وهى لا ترى ولا تدرى ! ! .

فـكما أن الإنسان لا يرى ملك الموت ، ولا يعقل ما يفعله ذلك الملك به ، وهو يقبض روحه .

فـكذلك الحيوان لا يعقل عملية الذبح والإنسان يجريها عليه .

لقد غاب عن الإنسان أفعال الملائـكة لأنه لا يراها . وغابت عن الحيوان عملية الذبح لأنه لا يعقلها .

وذلك كله من عجيب أمر الله السارى فى خلائقه ! .

فالإنسان محجوب عما تدركه حواسه ، والحيوان محجوب عما لا يدركه عقله .

وهذا حجاب ، وذلك حجاب ، وإن اختلفت الأساليب ! .

وليس هذا وحده هو الحجاب كله ، بل هناك مالا يحصى من الحجب ، يحجب بها الله ما شاء من خلائقه عما شاء من خلائقه ! ! .

فالملائـكة محجوبون عن البشر .

والبشر محجوبون عن القدر .

والخلائق كلها محجوبة عن الله ، والله ليس محجوباً عن أحد ! ! .

وأعجب من هذا ... الإنسان نفسه محجوب عن نفسه !! .

وأعجب العجب من حجب القدر ، حجب المصير عن الإنسان .

فلا أحد يدرى مصيره وما سيؤول إليه ! .

سواء فى هذا هذه الدنيا ، وتلك الآخرة .

أنظر إلى قوله تعالى : وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً .

والآية أعمق مما يتصور الناس ... فإن الناس يظنون لأول وهلة أن معناها أن كل إنسان لا يعلم ماذا يحدث له مستقبلا فى هذه الحياة الدنيا ...

كلا . . . ليس هذا هو المعنى . . . إن كلمة غداً تعنى المستقبل عموماً ، الدنيا والآخرة ، وما وراء الآخرة ، كل ما هو آت فهو غد ، فلا أحد يدرى ماذا يكسب فى دنياه أو فى آخرته .

وبالتالى لا تدرى نفس أهى من أهل الجنة أم من أهل النار .

كل الناس تسعى وتعمل « قل كل يعمل على شاكلته ... » الجميع يعملون ... ولكن الله وحده هو الذى يعلم أهل الجنة من أهل النار .

ومن هنا يحلق الخوف بجناحيه فوق رأس الإنسان .

مهما آمنت ، ومهما عملت ، فأنا لا أدرى مصيرى .

إنها المقادير تجرى فى الخلائق ، قهراً لا اختياراً ، وقسراً لا اضطرارا .

وعلى الذين لا يتعمقون الأمور ، أن يضعوا أصابعهم فى آذانهم حذر هذه الحقيقة فإنها أقوى من أحلامهم ، وأعلى من أوهامهم .

وإنها لقسمة سابقة ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

وإن المقادير لتأخذ بأنوف أصحابها ، كما يأخذ المرء بعنق دابته .

وإن الناس أحد فريقين . . . أهل الظلمة . . . وأهل النور .

أهل النار المظلمة ، وأهل الجنة المنيرة . . . ولكن أحداً لا يدرى مصيره ، أإلى هؤلاء ، أم إلى هؤلاء !! .

كلمات صوفية مضيئة

- قال الإمام الجنيد : إن الله يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه : فانظر ماذا يقرب من قلبك .
- قال عامر بن عبد القيس : ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إلى منه .
- قال القناد : الصوفى لا يعلل نفسه ، بعسى وسوف ؟
- قال ذو النون : بينما أنا أسير فى بعض البوادى إذ لقيتنى امرأة فقالت لى : من أنت ؟ فقلت : رجل غريب ، فقالت : وهل توجد مع الله تعالى أحزان الغربة ؟
- قال سهل بن عبد الله : الدعوة عامة والهداية خاصة ، وأشار إلى قوله تعالى : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .
- قال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب ، أحوج منا إلى كثير من العلم :
- قال معروف الكرخى : كل من زاد عليك فى خلقه ، فقد زاد عليك فى تصوفه .
- قال يوسف بن الحسين الرازى : قلت لذى النون رحمه الله من أصحب ؟ فقال : من لا تكتمه شيئاً يعلمه الله منك .
- يقول الإمام الشعرانى : لو أنفض الناس جميعاً من حولى : واهتزت شعرة من بدنى ، كفرت بربى .
- يقول حجة الإسلام الغزالى : الصوم هو أن تصوم نفسك عن كل شيء سوى الله سبحانه .